بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

خُطْبَةُ الجُمُعَةِ

الشَّوْقُ إِلَى لِقَاءِ اللَّهِ

٢٤ يوليو ٢٠٢٦

اَلْخُطْبَةُ الْمَسْنُونَةُ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ بِاللَّهِ تَعَالَى، الْمُوقِنِ بِلِقَائِهِ، وَالْجَاحِدِ لِلَّهِ تَعَالَى، الْمُنْكِرِ لِهَذَا اللِّقَاءِ، هُوَ كَمَا يَلِي:

أَمَّا الْمُؤْمِنُ بِاللَّهِ تَعَالَى، الْمُوقِنُ بِلِقَائِهِ، فَإِنَّهُ يَفْرَحُ كُلَّمَا مَضَى مِنْ عُمُرِهِ عَامٌ بِأَنَّ لِقَاءَهُ بِاللَّهِ تَعَالَى قَدِ اقْتَرَبَ، وَأَنَّ سَاعَةَ رُؤْيَتِهِ لِلَّهِ الْقَدِيرِ وَوُقُوفِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ قَدْ دَنَتْ وَاقْتَرَبَتْ. ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى مَا مَضَى مِنْ حَيَاتِهِ: فَإِنْ وَجَدَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَفَّقَهُ لِلثَّبَاتِ عَلَى أَوَامِرِهِ وَالِابْتِعَادِ عَنْ نَوَاهِيهِ، حَمِدَ اللَّهَ وَفَرِحَ؛ وَإِنْ رَأَى أَنَّ إِنْسَاناً مُقَصِّراً ضَالّاً قَدْ تَوَرَّطَ فِي بَعْضِ الذُّنُوبِ وَالْأَوْزَارِ، أَفَاقَ وَاسْتَغَلَّ مَا بَقِيَ مِنْ عُمُرِهِ، فَعَادَ تَائِباً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَصْلَحَ سُلُوكَهُ، وَقَوَّمَ اعْوِجَاجَهُ. فَهُوَ فِي الْحَالَيْنِ عَلَى خَيْرٍ.

أَمَّا الْجَاحِدُ لِلَّهِ وَالْمُنْكِرُ لِلِقَائِهِ، فَإِنَّهُ حِينَ يَرَى أَنَّ عَاماً مِنْ عُمُرِهِ قَدِ انْقَضَى وَتَسَاقَطَ، يَشْعُرُ بِأَنَّ سَاعَةَ الِاخْتِنَاقِ قَدِ اقْتَرَبَتْ مِنْهُ، وَأَنَّهُ اقْتَرَبَ مِنَ الْجِدَارِ الْمُصْمَتِ فِي دَاخِلِ النَّفَقِ الْمُظْلِمِ الَّذِي يَسِيرُ فِيهِ- نَفَقٍ فِي اتِّجَاهٍ وَاحِدٍ. فَيَنْتَابُهُ شُعُورٌ بِالْوَحْشَةِ، لِأَنَّهُ يَظُنُّ أَنَّ سَاعَةَ نِهَايَتِهِ وَفَنَائِهِ- كَمَا يَتَخَيَّلُ- قَدِ اقْتَرَبَتْ، وَأَنَّ سَاعَةَ ابْتِعَادِهِ عَنْ مَائِدَةِ الْمَلَذَّاتِ وَالشَّهَوَاتِ الَّتِي يَتْبَعُهَا قَدِ اقْتَرَبَتْ. هَذَا الشُّعُورُ يُلْقِيهِ فِي وَحْشَةٍ لَا مَثِيلَ لَهَا، وَلَا يَفِرُّ مِنْ هَذِهِ الْوَحْشَةِ إِلَّا بِالنِّسْيَانِ- وَأَنَّى لَهُ النِّسْيَانُ! فَلَا يَجِدُ طَرِيقاً إِلَى النِّسْيَانِ إِلَّا الْبَقَاءَ عِنْدَ كَأْسٍ، ثُمَّ كَأْسٍ آخَرَ، ثُمَّ آخَرَ.

هَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ بِاللَّهِ تَعَالَى، الْمُوقِنِ بِلِقَائِهِ، وَالْجَاحِدِ لِلَّهِ تَعَالَى، الْيَائِسِ مِنْ لِقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى.

إِنِّي أَضْرِبُ، يَا عِبَادَ اللَّهِ، هَذَا الْمَثَلَ لِنَعُودَ بِشُكْرٍ عَظِيمٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَبِحَمْدٍ لَا يَنْقَطِعُ لِرَبِّنَا تَعَالَى، أَنَّهُ لَمْ يَحْجُبْنَا عَنْ مَعْرِفَتِهِ. لَقَدْ أَكْرَمَنَا بِمَعْرِفَةِ ذَاتِهِ مِنْ خِلَالِ مَعْرِفَةِ أَنْفُسِنَا، وَبَيَّنَ لَنَا قِصَّةَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ الَّتِي نَقْطَعُ لَحَظَاتِهَا وَفْقَ طَرِيقٍ مُحَدَّدٍ مَرْسُومٍ لَنَا. لَقَدْ بَيَّنَ لَنَا اللَّهُ تَعَالَى الْأَصْلَ الَّذِي انْطَلَقْنَا مِنْهُ، وَالنِّهَايَةَ الصُّغْرَى الَّتِي تَنْتَظِرُنَا- الْمَوْتَ وَفِرَاقَ هَذِهِ الْحَيَاةِ- ثُمَّ النِّهَايَةَ الْكُبْرَى الَّتِي وَاعَدَنَا بِهَا، بِعَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ، حَتَّى نَكُونَ كَمَا وَعَدَنَا اللَّهُ تَعَالَى:

سورة القمر — آية ٥٤-٥٥

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ. فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾

يَا عِبَادَ اللَّهِ: تَعَالَوْا نَحْمَدِ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْنَا مِنْ أُولَئِكَ التَّائِهِينَ الضَّالِّينَ فِي صَحْرَاءِ هَذَا الْوُجُودِ، الْيَتَامَى فِي فَضَاءِ هَذَا الْكَوْنِ، الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ أَصْلاً لِرِحْلَةِ حَيَاتِهِمِ الَّتِي يَقْطَعُونَهَا، وَلَا يُدْرِكُونَ مِنْ مَعْنَى الْمَوْتِ إِلَّا الْعَدَمَ الْمُطْلَقَ. لِذَلِكَ يَشْعُرُ مِثْلُ هَذَا، كُلَّمَا اقْتَرَبَ مِنَ الْمَوْتِ وَمَضَى عَامٌ مِنْ عُمُرِهِ، بِوَحْشَةٍ وَغُصَّةٍ تَكَادُ تَخْنُقُ حَلْقَهُ.

احْمَدُوا اللَّهَ أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْنَا مِنْ هَؤُلَاءِ النَّاسِ، احْمَدُوا اللَّهَ تَعَالَى أَنَّهُ بَيَّنَ لَنَا حَقِيقَةَ قَوْلِهِ:

سورة السجدة — آية ١١

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾

تَعَالَوْا نَحْمَدِ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ بَيَّنَ لَنَا الْبُشْرَى الَّتِي يَحْمِلُهَا حَدَثُ الْمَوْتِ، إِذْ قَالَ، مُخَاطِباً كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا، كُلَّ مُؤْمِنٍ:

سورة آل عمران — آية ١٥٨

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ﴾

«إِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ»- نَعَمْ، مَا أَشَدَّ، مَا أَعْظَمَ سَعَادَةَ، بَلْ مَا أَشَدَّ نَشْوَةَ الْمُؤْمِنِ حِينَ يَجِدُ أَنَّ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا قَدِ انْقَضَتْ، وَأَنَّ الْأَوَانَ قَدْ حَانَ لِلرَّحِيلِ إِلَى هَذَا الْإِلَهِ الَّذِي طَالَ شَوْقُهُ وَتَشَوُّقُهُ إِلَيْهِ.

وَهَلْ هُنَاكَ سَعَادَةٌ أَعْظَمُ، وَأَيَّامٌ أَبْهَى، وَعِيدٌ أَلَذُّ، مِنْ أَنْ يَقْتَرِبَ اللِّقَاءُ الَّذِي وَعَدَكَ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى؟! وَهَلْ هُنَاكَ سَعَادَةٌ أَلَذُّ مِنْ أَنْ تَجِدَ نَفْسَكَ أَمَامَ مَنْ وَعَدَكَ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى؟! «وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ».

يَا عِبَادَ اللَّهِ: قَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ أَرَى صُورَةً تُمَزِّقُ الْقُلُوبَ- صُورَةَ أُولَئِكَ الَّذِينَ ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَحْتَفِلُونَ فَرَحاً بِمِيلَادِ عَامٍ جَدِيدٍ بَعْدَ انْقِضَاءِ عَامٍ مَاضٍ. فَمَاذَا رَأَيْتُ؟!

سَمِعْتُ ضَغِينَةً، سَمِعْتُ كَلِمَاتٍ تُعَبِّرُ عَنِ الْهَمِّ وَالْيَأْسِ وَالْوَحْشَةِ، وَرَأَيْتُ مَظَاهِرَ الْبُؤْسِ، وَرَأَيْتُ هَؤُلَاءِ النَّاسَ يَهْرُبُونَ. وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَتَأَمَّلُ هَذِهِ الصُّورَةَ عَنْ قُرْبٍ، رَأَيْتُهُمْ يَفِرُّونَ مِنَ الْوَحْشَةِ الَّتِي تُحِيطُ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا ثَانِيَ لَهُ: الشَّرَابِ. يَشْرَبُ، ثُمَّ يَشْرَبُ مَرَّةً أُخْرَى، ثُمَّ يَشْرَبُ مِنْ جَدِيدٍ، حَتَّى يَسْقُطَ أَرْضاً ثُمَّ يُجَرَّ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أُعِدَّ لَهُ- ثُمَّ يَأْتِي دَوْرُ الثَّانِي، ثُمَّ الثَّالِثِ، ثُمَّ الرَّابِعِ، ثُمَّ الْخَامِسِ.

إِنَّهُ عِيدٌ، لَكِنَّهُ عِيدٌ يُعَبِّرُ عَنْ مَأْسَاةٍ لَا مَثِيلَ لَهَا. لِمَاذَا؟ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُصْغُوا إِلَى بَيَانِ اللَّهِ الَّذِي أَخْبَرَنَا عَنْ قِصَّةِ هَذِهِ الرِّحْلَةِ- مِنْ بِدَايَتِهَا مُرُوراً بِالنِّهَايَةِ الصُّغْرَى إِلَى النِّهَايَةِ الْكُبْرَى. فَفَزِعُوا مِنَ الْمَوْتِ، وَفَزِعُوا مِنَ الْحَيَاةِ الَّتِي لَا يَعْرِفُونَ حَقِيقَتَهَا.

أَمَّا نَحْنُ، يَا عِبَادَ اللَّهِ، الَّذِينَ أَكْرَمَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِمَعْرِفَتِهِ، فَإِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّنَا جَمِيعاً نُدْرِكُ وَنَشْعُرُ بِأَنَّنَا فِي كَنَفِ لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَى وَرِعَايَتِهِ حِينَ نَتَدَبَّرُ قَوْلَهُ:

سورة محمد — آية ١١

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾

نَعَمْ، لَسْنَا يَتَامَى فِي صَحْرَاءِ هَذِهِ الْحَيَاةِ، بَلْ نَحْنُ مَرْبُوطُونَ بِرَبِّنَا، رِبَاطُ عُبُودِيَّتِنَا لَهُ يَجْذِبُنَا إِلَيْهِ، وَلُطْفُهُ يَصِلُنَا دَوْماً عَبْرَ وَلَايَتِهِ عَلَيْنَا. أَلَمْ تَقْرَؤُوا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى:

سورة البقرة — آية ٢٥٧

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾

هَذِهِ حَقِيقَةٌ أَسْعَدَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِهَا، وَإِنَّمَا أُذَكِّرُ نَفْسِي وَإِيَّاكُمْ بِهَا لِنَتَعَمَّقَ فِي شُكْرِ اللَّهِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْنَا مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُفَسِّرُونَ الْحَيَاةَ بِالْمَآسِي، الَّذِينَ يُفَسِّرُونَ نِهَايَةَ هَذِهِ الْحَيَاةِ وَاسْتِقْبَالَ الْمَوْتِ بِهَمٍّ لَا مَثِيلَ لَهُ.

يَا عِبَادَ اللَّهِ: لَقَدْ تَلَوْتُ لَكُمْ آنِفاً قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى:

سورة الكهف — آية ٢٨

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾

قِفُوا مُتَأَمِّلِينَ مُتَدَبِّرِينَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا».

فَهُنَاكَ أُنَاسٌ أَغْفَلَ اللَّهُ تَعَالَى قُلُوبَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِ، فَهَامُوا فِي سُبُلِ هَذِهِ الْحَيَاةِ دُونَ أَنْ يَعْرِفُوا رَبَّهُمْ وَخَالِقَهُمْ، وَبِالتَّالِي دُونَ أَنْ يَعْرِفُوا هُوِيَّتَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ. أَمَّا نَحْنُ، فَقَدْ أَكْرَمَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ جَعَلَ قُلُوبَنَا أَوْعِيَةً لِذِكْرِهِ، أَوْعِيَةً لِمَحَبَّتِهِ، أَوْعِيَةً لِتَعْظِيمِهِ وَإِجْلَالِهِ وَخَشْيَتِهِ. مَا أَعْظَمَ هَذِهِ النِّعْمَةَ! مَا أَلْطَفَكَ بِنَا، يَا رَبَّنَا، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، أَنَّكَ لَمْ تَجْعَلْنَا مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعْتَ عَلَى قُلُوبِهِمْ غِشَاوَةً عَنْ ذِكْرِكَ. لَقَدْ جَعَلْتَ قُلُوبَنَا أَوْعِيَةً لِذِكْرِكَ، وَحَبَّبْتَ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيَّنْتَهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرَّهْتَ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ.

هَذِهِ الْحَالَةُ، يَا إِخْوَتِي، تَجْعَلُنَا نَفْرَحُ حِينَ يَقْتَرِبُ الْمَوْتُ- لَا نَحْزَنُ وَلَا نَشْعُرُ بِبُؤْسٍ أَوْ شَقَاءٍ. الْمَوْتُ! مَا الْمَوْتُ؟ الْمَوْتُ هُوَ السَّاعَةُ الَّتِي يُرْفَعُ فِيهَا الْحِجَابُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ. وَأَنْتَ، أَنْتَ الَّذِي بَقِيتَ تَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى دُونَ أَنْ تَرَاهُ، تَعْبُدُهُ دُونَ أَنْ تَرَاهُ، تَصِلُكَ رَسَائِلُهُ- رَسَائِلُ الْمَحَبَّةِ- وَتَصِلُكَ إِجَابَاتُهُ لِدُعَائِكَ دُونَ أَنْ تَرَاهُ- الْمَوْتُ هُوَ السَّاعَةُ الَّتِي يُقَالُ لَكَ فِيهَا: هَا قَدِ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ الَّتِي تَرَى فِيهَا إِلَهَكَ الَّذِي دَعَوْتَهُ دُونَ أَنْ تَرَاهُ؛ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ الَّتِي دَعَوْتَ فِيهَا اللَّهَ تَعَالَى دُونَ أَنْ تُدْرِكَهُ بِبَصَرِكَ؛ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ الَّتِي تُذَكِّرُكَ بِرَسَائِلِ الْمَحَبَّةِ وَالْعَطَايَا الَّتِي كَانَتْ تَأْتِيكَ مِنَ اللَّهِ بِاسْتِمْرَارٍ. هَذَا هُوَ الْمَوْتُ، هَذِهِ هِيَ حَقِيقَةُ الْمَوْتِ، يَا عِبَادَ اللَّهِ- لَكِنْ لِمَنْ؟ لِمَنْ عَرَفَ اللَّهَ، وَإِنْ كَانَ عَاصِياً، فَإِنَّهُ سَيَعُودُ إِلَى اللَّهِ، مَا دَامَ لَمْ يَتَكَبَّرْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى.

تَعَالَوْا، يَا عِبَادَ اللَّهِ، نُغَذِّي هَذِهِ النِّعْمَةَ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْنَا بِمَزِيدٍ مِنَ الشُّكْرِ، بِمَزِيدٍ مِنَ الْحَمْدِ، حَتَّى نَقُولَ- حِينَ تَقْتَرِبُ سَاعَةُ الْمَوْتِ وَنَقَعُ فِي سَكَرَاتِهِ- كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا، كَمَا قَالَ بِلَالٌ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، حِينَ كَانَ يُعَانِي سَكَرَاتِ الْمَوْتِ وَسَمِعَ أَحَدَ أَهْلِهِ يَقُولُ: 'وَاحُزْنَاهُ!'، فَقَالَ: 'بَلْ وَاطَرَبَاهُ! غداً نَلْقَى الْأَحِبَّةَ، مُحَمَّداً وَصَحْبَهُ.' فَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُوَفِّقَنَا فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الَّتِي سَتُدْرِكُنَا قَرِيباً أَنْ نَقُولَ، أَنْ يُوَفِّقَنَا لِأَنْ نَقُولَ كَمَا قَالَ بِلَالٌ، مُؤَذِّنُ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): 'وَاطَرَبَاهُ! غداً نَلْقَى الْأَحِبَّةَ، مُحَمَّداً وَصَحْبَهُ.' آمِينَ.